إِحياءُ

سُنَنِ الْإِسْلَامِ وقَواعِدِهِ

للكاتب الأديب المحقق

السيّد محبّ الدّين الخطيب

(1389-1303)

نسخها

محمد جميل حمامي

إحياء سنن الإسلام وقواعده

سنن الإسلام وقواعده لا تنحصر في المسجد ، ولا في أصناف العبادة من صلاة وصوم وحج ، بل هي عامة شاملة لكل ما تعمه الحياة وتشمله الطمأنينة و السعادة ، لأنها هي رسالة الإسلام إلى الإنسانية ما بقيت الإنسانية .

وهي تبدأ من العقل البشري ، لأنه المنظم لمدارك بني الإنسان ، و المحرك لجوارحهم و المتصرف ـــ إيجاباً وسلباً ـــ في عواطفهم و أهوائهم التي تنطوي عليها جوانحهم[1] ، فتحوطه بما يقيه الخطأ فيما يجب عليه من الحكم للحق على الباطل ، و الخطل[2] فيما ينبغي له من إيثار الخير على الشر .

و تصحب هذه السنن و القواعد النفس الإنسانية ـــ في جميع أدوار حياتها ـــ فتملي عليها التصرف الحميد في كل ما يصدر عنها من قول و عمل في معترك الحياة ، وفي مذاهب العيش ، و في تنظيم الحوائج و الضرورات ، و في تعديل الميول و الأهواء .

وهذه السنن و القواعد يقوم منها حارس أمين على المترل و الأسرة إذا اتخذت معياراً للأقدار ، ومقياساً في الحسنات و الأوزار ، و إذا عني الوالدان بأن يسيرا عليها في أخلاقهما و تصرفاتهما ، و يكونا قدوة للبنين و البنات في معرفتها من طريق العادة و العمل ، و التزامها في السر و العلن .

و من هذه السنن و القواعد ما لو تعامل به الجار مع جيرانه و التاجر مع عملائه ، و الأقارب مع أنسبائهم و أصهارهم ، و صاحب العمل وعماله ، و الموظف مع أصحاب المصالح في مصلحته ، و رئيس المصلحة مع موظفيه ، لكنا جميعاً ـــ بسبب العمل بهذه السنن و القواعد ـــ أشبه بالأسرة الواحدة في المحبة و المودة ، حتى لو كان عددنا في هذا الوطن أربعين مليوناً ، بل كنا نكون ـــ لو عمل جميع المسلمين بها ـــ كالأسرة الواحدة في المحبة و المودة و لو كان عدد المسلمين خمسمائة مليون .

سعادة عظيمة هي في متناول أيدينا ، ولكننا لا نعرفها ، لأن الطريق الحقيقي و العملي لمعرفتها هو طريق التعامل بها ، و مما يؤسف له أن التعامل بها بطل من ألف سنة وأكثر ، وكان معمولاً بها في البطون الثلاثة

---

[1] الجوانح : الأضلاع التي تحت التّرائب وهي مما يلي الصدر كالضلوع مما يلي الظهر .

[2] الخطل : الاضطراب في الكلام .

الأولى في الإسلام وهي زمن الصحابة و التابعين و التابعين لهم بإحسان ، وهم الذين صح عن رسول الله ﷺ أنه قال فيهم : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »[3] وكان قرنه خيراً من القرن الذي تلاه ، وكان القرن الذي تلاه خيراً من الثالث و القرون الثلاثة ــ بنص الخبر المحمدي الصحيح ــ هي خير قرون الإسلام ، لا لأنهم اكتسبوا ذلك من زمنهم ، فالزمن في نفسه متشابه به قبل آدم وبعد آدم ، وقبل محمد ﷺ وبعده ، وقبل القرون الثلاثة من أجيال الإسلام و بعدها ، بل الخير الذي امتازت به الأجيال الثلاثة الأولى في الإسلام جاءهم من اتباع هذه السنن و القواعد وعلمهم بها ، وكان الموفق من الله من أبنائهم يتعلمها من الآباء بالقدوة و المشاهدة و العمل . وزمن الدولة الأموية ــ الذي رسم أكثر الناس صورة له في أذهانهم كاذبة مشوهة ــ كان ثالث هذه الثلاثة ، وحتى الذين كانت فيهم رجولة وشهامة وحزم وتربية من خلفاء صدر الدولة العباسية هم الذين تربوا في زمن دولة بني أمية ، ثم أخذ الناس يتهاونون بهذه السنن و القواعد من طريق القدرة[4] أيضاً ــ كما كانوا يعملون بها بالقدوة ــ حتى تناسوها و تناسوا أكثرها ، و الموجود منها الآن عند أصلح الناس يكاد يكون من أشكال هذه السنن والقواعد ومن مظاهرها ، وقلما أبقى الناس على شيء من حقائقها . و الذي ضاع بتاتاً ونسي بالمرة تسعمائة جزء من الألف ، والذي بقيت مظاهره و أشكاله لا يبلغ مائة من الألف . وهو في نفسه من الشكليات التي لا أثر لها في نفس الإنسانية إلا من طريق العرض ، أما جواهرها وحقيقتها التي تسمو بالنفس الإنسانية فهي التي أُهملت ونُسيت .

ويقول نبينا محمد ﷺ فيما رواه الترمذي : « من أحيا سنة أميتت بعدي كان معي في الجنة »[5] .

و كان ﷺ يعلم أن شريعته وسنته ستحتاج إلى من يحييها و يقيمها في عصورنا ، كما احتاجت إلى من يعين عن تقريرها و تعميمها و الدعوة إليها ابتداء في القرون الثلاثة الأولى ، فبشر ﷺ العاملين على إحياء سنن الإسلام و قواعده في عصورنا بأنهم كالغيث الذي يحيي الله به الأرض و أنهم يضارعون[6] في الخير ذلك الغيث الأول الذي أحيا الله به الإسلام في القرون الثلاثة الأولى .

---

[3] هكذا بهذا اللفظ لا أصل له ، و المحفوظ في كتب السنن (خير الناس قرني ...) وقد تقدم .

[4] كذا في المطبوع ، وكأنه أراد (القدوة) .

[5] ضعيف هكذا ، ويغني عنه أحاديث صحيحه أخر مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من سن سنة خير فأتبع فليها فله أجره و مثل أجور من اتبعه) رواه الترمذي 2675 و قوله صلى الله عليه وسلم (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من يتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً) رواه الترمذي كذلك 2674 .

[6] أي يشابهون .

ولذلك قال ﷺ في ما رواه الترمذي أيضاً : « إنما مثل أمتي كمثل الغيث لا يُدرى أوله خير أم آخره »[7] .
وإذا كان لإحياء سنن الإسلام وقواعده هذه المترلة على لسان رسول الله ﷺ فلا شك أن العاملين على إحيائها مثوبون على عملهم كثواب العبادة ، بل إن هذا من نوع الجهاد ، و الجهاد أفضل العبادات ، ويقول نبينا ﷺ فيما رواه الإمام مسلم في صحيحه : « إن العبادة وقت الهرج و الفتن كهجرة إلي »[8] .
هذه الملايين التي أسلمت في صدر الإسلام في مختلف الأقطار لم تسلم بالجدل و المناظرة ، لأن الإسلام يكره الجدل و يكتفي من المناظرة بعرض الحق على فطرته ونقائه . ثم يرى الأغيار تطبيق ذلك في معاملة المسلمين الأولين و أخلاقهم ، فلا يخامرهم شك في أن هذا هو دين الفطرة ، و أنه الخير المحض المجرد تعرفه الإنسانية وتنشد من ينهض به ويجعله دستوراً لأبنائها .
و العمل بالخير المحض ، و بالحق النقي ، أمنية لجميع الأجيال ، وكان العمل بهما محتاجاً إلى سنن وقواعد تبينهما تبييناً حازماً واضحاً مركزاً ، وإلى أمة تجرب العمل بهما ، فيتجلى أثر ذلك من الطمأنينة و السعادة في المجتمع ، فتقبل الأمم عليه .
و كانت مهمة الإسلام ورسالته إعلان هذه السنن و القواعد ، وكان واجب المسلمين العمل بهما ، و التخلق بأخلاقهما . وبهذا عمّ الإسلام أقطار الأرض المعروفة في زمن ظهوره . وكان الإسلام في زمن ظهوره غريباً ، وبمعرفة سننه و العمل بها زالت غربته . وصح بعد ذلك ما أنبأ به نبينا ﷺ من أن الإسلام يعود غريباً كما بدأ[9] . ومعنى ذلك أن سننه وقواعده تُعَطل و تُهمل ، فيأتي على الإسلام زمان يحتاج فيه إلى من يزيل غربته بإحيائها ، وقد حضّ النبي ﷺ على ذلك ورغب فيه بحديث الترمذي الذي أوردناه آنفاً وهو قوله صلوات الله عليه : « من أحيا سنة أميتت بعدي كان معي في الجنة » .
وبعد فإن لإحياء سنن الإسلام ثلاث مراحل :
الأولى : الدعوة إلى ذلك بإخلاص وحسن نية و ابتغاء وجه الله الكريم ، و أرجو أن تكون هذه الكلمة من هذه المرحلة .

---

[7] انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة 2286 فقد صححه الألباني هناك بلفظ : (مثل أمتي مثل المطر ، لا يدرى أوله خير أم آخره) .
[8] صحيح الإمام مسلم (2948) .
[9] روى الإمام مسلم [370] وغيره ، قول النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : (بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء) ، وللإمام ابن رجب الحنبلي رسالة نافعة جداً اسمها (كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة) يحسن الإطلاع عليها .

المرحلة الثانية : تفرغ أهل العلم من الأزهرين و الجامعين لتتبع هذه القواعد و استقصائها ، وتحري ما قاله سلف الأمة في أحكامها ، وفهم ذلك وهضمه ، و النظر إليه من ناحية ما نرجوه لمجتمعنا من السعادة بهذه السنن و القواعد ، و ما يترتب عليها من الطمأنينة و الرضا العام الشامل .

المرحلة الثالثة : العمل بذلك و تربية المسلم نفسه على العمل بسنن الإسلام في عقله ونفسه و بيته وأسرته و بيئته و محيطه وكل ما يتصل به .

بهذا نكون مسلمين ، و بهذا يكون البعث الإسلامي ، وهذا هو الوجه المشرق الجميل للإسلام ، و يستحيل على غير المسلمين أن يروه وأن لا يحبوه ، فكيف بالمسلمين من خاصة وعامة وتابعين و متبوعين[10] .

إن المسلمين بانسلاخهم الآن عن سنن الإسلام التي فيها سر جماله قد أصبحوا حجاباً بين الإسلام و معرفة الأمم به ، فهي لا ترى من الإسلام إلا ما عليه المسلمون . و الذي عليه المسلمون اليوم غير الذي كان عليه المسلمون الأولون عندما عرفوا الإسلام من الرسول الذي جاءهم به ، و عندما عرفه الذين جاءوا بعدهم من السيرة التي كان عليها تلاميذ الداعي الأول ﷺ و الذين بقوا منا على عهد الوفاء للإسلام اكتفوا منه بنظام عبادته ، و انحرفوا مع تيار المجتمع في نظام المجتمع من جهة التعامل و التطبُّع و التخلق بما يسموا بالنفس إلى المثل العليا ، أو ينحط بها إلى المنافع الوقتية الزائلة ، فصرنا جميعاً ممن يؤثرون العاجلة و إن كانت تافهة ، على الآجلة و إن كانت أجل و أبقى و أرضى لله عز وجل .

كان الإسلام دين الإنسانية . و السنن و القواعد التي جاء بها هي سنن الإنسانية العليا و المدنية الفاضلة ، وقد استجابت لها الأمم يوم كانت لا تزال كما هي وبقدر ما هي ، وكان من نتائج ذلك وثمراته ما نقرأه في التاريخ عن سيادة أسلافنا وسعادتهم وازدهار العمران و العدالة و الطمأنينة بهم . و أخذ الإهمال و التهاون و التناسي ينقص هذه السنن و القواعد فتذبل خضرة أغصانها ، إلى أن تحولت بقاياها القليلة من أغصان زمردية يانعة الفاكهة و الزهر ، إلى حطب اقتنع من يراه بأنه لا يصلح إلا للوقود . وما على الإسلام ذنب في شيء

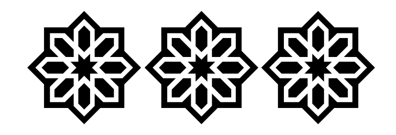
---

[10] فهذا نداء لكل من اشتغل بهذا الدين لا تدعوا إلى الله بقولك ، و إلى النار بفعلك ! ، فتكون فعالك قبيحة تنفر الناس منك ومن دعوتك ، ويحكم الضعاف على ما تحمله من حق وخير بالضلال و الشر بسبب أنك أسأت لنفسك أولاً ، فالسمت السمت رعاكم الله ، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله – كما نقل عنه المباركفوري في تحفة الأحوذي – معرفاً السمت : (تحرّي طُرق الخير ، والتزيّ بزيّ الصالحين ، مع التَّنَزّه عن المعائب الظاهرة و الباطنة) .

من هذا التحول ، ولكن الذنب فيه على المسلمين ، ولا أحصره بمسلمي جيلنا ، بل هو يعم كل من ساهم في هذا الإهمال من مسلمي الأجيال بعد البطون الثلاثة الأولى .

و أعود فأذكر صالحي المسلمين من أزهرين وجامعيين وسائر المثقفين بقول نبي الإنسانية ورسولها الأعظم ﷺ : (من أحيا سنة أميتت بعدي كان معي في الجنة) . وقد يظن من يأنس في نفسه الميل إلى المساهمة في هذا الخبر أن إحياء سنن الإسلام و قواعده عمل علمي يتم بالبحث عنها في كتب الحديث المحمدي و الشريعة الإسلامية وسيرة السلف وتدوين ذلك ونشره في مقالات و رسائل وكتب . ولا أنكر أن هذا من خير ما يعمله أهل العلم و الشباب الإسلامي المثقف ، غير أن طريقة السلف في هذه الناحية هي أنهم كلما عرفوا شيئاً من ذلك عملوا به في أنفسهم ، وأرشدوا إليه إخوانهم وأحبابهم وذويهم ، فإذا انتقلوا إلى غيره من طريق العلم انتقلوا إليه وهم عاملون بما عرفوه من قبل . وقد حدثت بذلك فيما مضى بما رواه حماد بن زيد وغيره عن عطاء بن السائب أن عبد الرحمن السلمي قال : أخذت القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأخر حتى يعملوا ما فيهن .

فكنا (نتعلم) القرآن و (العمل) به . و إنه سيرث القرآن بعدنا قوم لا يجاوز تراقيهم ، بل لا يجاوز هاهنا (و وضع يده على حلقومه) .



متى نكون أمة صالحة ؟

نكون أمة صالحة يوم نلتفت ذات اليمين وذات الشمال فنرى لبلادنا جحافل من الجيوش المنظمة ، مجهزة بأحدث الأسلحة و أسرعها ، مصنوعة بأيدينا وفي مصانعنا وتحت سماواتنا .

و نلتفت إلى سواحلنا فنرى لنا في مياهها أساطيل حربية وتجارية تملأ قلوب الأمم إيماناً بصلاحنا ، و استسلاماً لهيبتنا .

ونلتفت إلى جماركنا فنراها منهمكة بالتصدير ، لا بالاستيراد .

و نلتفت إلى جامعاتنا فنراها تعمل على تكوين علماء عاملين في جميع ضروب المعرفة : من تحقيق تاريخنا ، تتجلى لنا به نفوس السلف كما هي طاهرة نقية ، عاملة ناصبة ، دائبة على الخير ، مقيمة للحق ، ناهضة بالمثل العليا ، مكونة للإنسانية الخيرة المتواضعة المتعاونة . و تتجلى لنا به عوامل الشر التي طرأت على ذلك الماضي الطيب فعبثت بسننه الفطرية ، و اكتفت من حقائقها بقشورها و ألفاظها ، و حولتها عن اتجاهاتها إلى غير ما كانت ترمي إليه[11] .

ومن تنظيم وتنقيح لمبادئنا التشريعية ، و أحكامنا القضائية و الفقهية ، يتبين منه للناس أن أمم الأرض مجتمعة من بدء الخلق إلى أن تقوم الساعة ، لم تتوَخَّ في أحكامها ما توخَّاه الإسلام و شريعته و فقهاؤه من تحري الحق و العدل و الخير ، غير متأثرين بأهواء أحد من الناس .

ومن استنباط و استخراج لأسرار الله في الكون ، وقوى الخليقة الكامنة في عناصرها ، وتحويلها إلى خير الإنسانية و سعادة الخلائق .

و نلتفت إلى ما أنعم الله به علينا من تربة و أنهار و ينابيع و مناجم و نقود و متاع فنشكره عليها بحسن استعمالها و استغلالها و استنتاجها حتى لا ندع قطرة من ماء ، ولا شبراً من أرض ، ولا ذا قيمة من ركاز أو معدن ، إلا حولناه ـــ بالتدريج ، وبلا فتور ـــ إلى قوة نافعة للناس ، مؤيدة للخير ، ذابة عن الحق .

---

[11] سيحدث هذا لا نشك فيه ، فالمستقبل للإسلام ، بشهادة الكثير من النصوص النبوية المشرفة ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم : (إن الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، و إن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها) ، و كقوله بأبي وأمي هو (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل و النهار) [انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1/31-36)] وكقوله صلى الله عليه وسلم : (بشر هذه الأمة بالتيسير ، و السَّناء و الرِّفعة بالدِّين والتمكين في البلاد و النصر) ، صححه الألباني في صحيح الترغيب و الترهيب [28] ، هذا لا نشك فيه ، ولكن السؤال : هل تكون أنت من رجاله ؟!!

نفعل ذلك كله بأخلاق فاضلة ، ونفوس عفيفة ، وجهود دائبة نشيطة ، وقلوب و عقول متجهة إلى الله ، متوخية مرضاته ، عاملة لطاعته .

يومئذ نكون أمة صالحة ، ويومئذ نكافأ من الله على هذا الصلاح بأن يؤهلنا لنكون خلفاءه على الأرض .

ولكن متى يكون هذا ، ومن ذا الذي يفعله ، وكيف يفعله ؟

اليابانيون ـــ قبل غلطتهم الأخيرة ـــ حاولوا بعضه في ستين أو سبعين سنة ، وكان العامل في وجوده روح عامة سرت فيهم ، و إرادة ملأت نفوسهم ، و اندفاع فردي و جماعي إلى العلم و العمل التمسوا فيه طرقهما ، يختار كل واحد ما ترتاح إليه نفسه ، ويوافق مشربه ، وما تطيقه مواهبه ، ويلتئم مع ظروفه . وكان الواحد منهم إذا ارتاحت نفسه إلى باب من أبواب العلم ، أو ضرب من ضروب العمل ، ورآه فوق طاقته و أوسع من نطاق ظروفه ، بحث له عن أعوان من أشباهه و نظرائه فتعاونوا مجتمعين ، على ما ينوءون به منفردين . فكان تعاونهم عليه بإخلاص و إنصاف و محبة وصدق في السر و العلانية . ومن هنا نشأت المصانع الضخمة ، و الشركات البحرية التي ملأت آفاق المحيط سفناً ، وبهذا وجدت صحفهم اليومية الكبرى التي تدار بآلات من صناعة بلادهم أقاموا لها أضخم المباني . و ببركة هذا التعاون وجدت شركات النشر التي أخرجت للناس دوائر المعارف المتقنة ، و المعاجم الكبرى ، وسلاسل المصنفات العجيبة في شتى العلوم و صنوف المعرفة .

و مما زادهم توفيقاً ونجاحاً في هذه النهضة الجدية[12] إخلاص العمال و العاملات و قناعتهما . فبينما كانت أوربا و أمريكا تتخبطان في أنانيات أصحاب الأعمال و العمال و تناحرهما ، كانت اليابان في راحة من هذا الفساد بإقبال العمال على أعمالهم مخلصين للمصنع كأنهم أصحابه ، بل أكثر مما يفعل أصحابه لو كانت أيديهم في مكان أيدي العمال ، فاتسعت بذلك الصناعات . و لم تبق تحت سماء اليابان يد واحدة بلا عمل من نساء أو رجال ، فهي بلاد لم تعرف التسول ، و لم تعرف التعطل ، وكانت أوربا و أمريكا تحسدانها على هذا التعاون بين العمال و أصحاب الأعمال ، وعلى قلة تكاليف الصناعات ، حتى أغرقت اليابان الدنيا كلها بصناعاتها ! وغزت بها بلاد أوربا و أمريكا بالرغم من الحواجز الجمركية القاسية الجائرة التي أقيمت في وجهها ، بل كانت اليابان تعمد إلى صميم ما انفردت به أمة من أمم أوربا ، فتقلده ، و تصنعه بربع تكاليفه ، و تبيعه في البلاد التي كانت تصنعه ! فكانت هذه المباراة الصناعية حرباً قبل الحرب ، وقتالاً بلا سلاح .

---

[12] كذا ! ولعلها الجديدة .

وكاد اليابانيون أن يُدخلوا إلى مصر و غيرها قبل الحرب الأخيرة سيارة صغيرة بمقعدين أو ثلاثة يستطيع المرء منا أن يشتريها بعشرين أو ثلاثين جنيهاً فيستغني بها صغار الموظفين بل العمال عن ركوب الترام ، لولا أن اليد الاستعمارية حملت الجمارك على صد هذه الحملة الاقتصادية بأسلحة تشريعية حالت بين مصنع السيارات الياباني و مستهلكي مصنوعاته في الخارج .

ولو أن اليابانيين اقتبسوا من الإسلام طريقته الحكيمة في الاتصال بالأمم ، كما اقتبسوا من أوربا و أمريكا طريقتهما القويمة في الصناعات و علومها ، وبنوا على ذلك تعاونهم مع الصين و إندونيسيا و بورما و الفلبين وسائر المشرق ، لاتقوا بذلك الكارثة التي وقعوا بها أخيراً فأرجعتهم إلى الوراء ستين أو سبعين سنة . ولكنهم ـــ برحمة من الله لأمم المشرق ـــ تعلقوا بمبادئ الاستعمار الأوربي ، فاصطدموا به الصدمة التي أتاحت لإندونيسيا هذه النهضة المباركة التي ستؤتي أكلها بعون الله طيباً نافعاً بعد خمسين أو ستين سنة بما لا يكاد قارئ هذه السطور أن يصدقه لو أردت أن أصف ما أرجو وقوعه[13] .

أيها العرب ، أيها المسلمون ، إن الأمم لن تعيش بعد اليوم إلا مرتفعة الرأس بالسيادة ، أو منكسة الرأس بالعبودية .

و للسيادة أعباء لابدَّ من حملها ...

وللسيادة طرق لابد من سلوكها ...

و للسيادة أخلاق لابد من التخلق بها ..

و للسيادة علوم لابد من الحصول عليها ..

و للسيادة عمل دائر دائب مستمر يتحطم الكسالى و المهملون تحت عجلاته وبين دواليبه .

أول عناصر السيادة للعربي و المسلم أن يعرف حقيقة العروبة وسجاياها التي أهلتها لحمل رسالة الإسلام الأولى على خير الوجوه و أنجحها ، و أن يعرف رسالة الإسلام و مهمته في الأرض كما كان يفهمها أهله الأولون .

إن سجايا العروبة أخلاق هذبها الإسلام و قام على أركانها فكانت له السيادة ، وكانت للإنسانية به المُثُل العليا مشاهدة في تصرفات أهله و معاملاتهم ، بعد أن كانت خيالاً وهمياً و أملاً ميئوساً من تحقيقه . أما

---

[13] رحم الله محب الدين الخطيب ! فقد صدق حدسه وظنه ، فانظر اليوم إلى إندونيسيا ألا ترى حالها كما قال الشيخ هنا ؟!

رسالة الإسلام و مهمته فهي تكوين الأمة (الصالحة) ، و تعميم صلاحها في الأمم ، حتى يعم الإنسانية كلها .

أصاب سلفنا الأول مراد الإسلام من (الصلاح) و (الفقه) فاتصفوا بهما مدة الخلفاء الراشدين ، وفي زمن التابعين لهم بإحسان ، وكانوا بذلك خلفاء الله على الأرض . على معظم الأرض التي كانت معروفة يومئذ ، في آسيا ، و إفريقية ، و أوربا ثم أخطأ الذين بعدهم فهم (الصلاح) و (الفقه) بمعناها الإسلامي ، فحصروهما في أشياء ، و أبعدوهما عن أشياء فانقطعت السلسلة ، وانفرط العقد ، وخرجوا عن طريقة الإسلام في تكوين (الأمة الصالحة) .

الأمة الصالحة هي التي تتكون من أفراد صالحين . وصلاح الأفراد يشمل أمور الدنيا و أمور الآخرة ، لأن الإسلام جاء للسعادتين فيهما معاً . و الدنيا في الإسلام مزرعة الآخرة ، و الأمة التي تهمل إصلاح دنياها يوشك أن تكون أكثر الأمم إهمالاً لما يُصلح أخراها[14] .

و (الفقه) أحكام إسلامية استنبطناها من الهداية المحمدية بصريح النص أو بالقياس عليه أو بالإجماع على أنه يوافقه أو أنه غير معارض له ، و أعجب ما أعجب له أن يتقيد المسلم بالحكم الشرعي المستنبط من النص فيما يتعلق بالحيض و النفاس و نواقض الوضوء ، ولا يبالي بالنص المحمدي الصريح فيما يتعلق بالأخلاق الفردية و البيتية ، والتوجيهات الاجتماعية ، و الأمور التي تتصل بكيان الأمة و الدولة . و أعجب من ذلك كله أن ننعت بالصلاح الرجل الذي يتقيد بأحكام الشريعة في الوضوء و التيمم و مناسك الحج و يخالف أكثر سنن الإسلام وهدايته فيما يتعلق بالأخلاق الاجتماعية و روابط الأمة و اتجاهات الدولة ، فإذا فرط في هذه الأمور الأخرى ، وداجى[15] ، وقطع ما أمر الله به أن يُوصل ، وكتم ما أخذ الله على العلماء أن يجهروا به ، كان ذلك في نظرهم هيناً ، وهو عند الله عظيم .

إن الأمة الإسلامية الصالحة هي التي يتعاون جميع أفرادها ــ كل واحد من الجانب الذي هو فيه ــ على استكمال جميع أسباب القوة و السعادة و الخير باتخاذ أسبابه ، و الوقوف على دخائل العلوم المؤدية إليه ، و العمل لتحقيقه بأمانة و إخلاص و قناعة و إتقان ، و أن يوفق كل فرد في الأمة بين مصلحته الشخصية و المصلحة العامة التي تتمثل بها قوة الأمة و كرامتها و سيادتها .

---

[14] فدين بلا بدن لا يَقُوم ! و بدن بلا دين لا يُقَوَّم !!

[15] أي سَتَرَ وغطى .

أنا من خمسين سنة إلى الآن أتتبع نصوص الإسلام ، و أطيل النظر في عقائده ، وقواعده ، وسننه ، وفي فهم الصحابة و التابعين لها ، ثم في الألاعيب التي اخترعها الزنادقة و الدجالون و الجهلة لتحويلها عن أهدافها .
و قد تكوَّن في قلبي اليقين بأنه ليس في عقائد الإسلام عقيدة ، ولا في عباداته عبادة ، ولا في مبادئه و سننه مبدأ أو سنة ، ولا في نصوصه وتوجيهاته نص أو توجيه ، إلا وله أثر عملي في تكوين (الفرد الصالح) و (البيت الصالح) و (الأمة الصالحة) ، و ما أخر الإسلامُ المسلمين ، ولكن المسلمين عطلوا دينهم وشوهوا جماله ، فلم يسيئوا إليه لأن الله تولى حفظه لمن يريد أن ينتفع به ، و إنما أساءوا إلى أنفسهم ، و إلى جماعاتهم و أوطانهم ، و إلى ذراريهم (و الجزاء من جنس العمل) .
الإيمان الإسلامي يتعلق بما هو حق من أمر الغيب ، كما يتناول ما هو خير من حياة الشهود ، ولذلك تشعب إيماننا إلى بضع وسبعين شعبة : منها الحياء ، ومنها السعي الحلال و الكدح المنتج ، و منها الصدق ، ومنها التعاون على الخير ، و منها الاعتدال ومنها مقاومة البغي ، ومنها الأمانة ، ومنها العزة بالحق ، ومنها التواضع فيما لا ينافي الكرامة ، ومنها النصح للجميع ، ومنها الاقتصاد في كل ما لا تمس إليه الحاجة الضرورية ـــ حتى الماء الذي يتوضأ به المتعبد وهو على النيل يجب عليه أن لا يسرف فيه ، لا خوفاً على النيل أن ينقص ، بل خوفاً على النفس الإسلامية أن تتعود السرف و التبذير ـــ كل ذلك وما أشبهه (مما تكون به الأمة الصالحة) معدود في الإسلام من شعب الإيمان به ، بل إن أدنى ما في الإيمان الإسلامي و أقل ما نحصيه من مزاياه ، أن المؤمن ينبغي له أن يميط الأذى عن طريق الناس أي عن طريق من يعرف ومن لا يعرف من أبناء السبيل ، وقد يكون فيهم صديق الإنسان وعدوه[16] .
و الإيمان الإسلامي – إنما يؤدب النفس الإسلامية بأدب الإحسان في كل شيء ، عملاً بقول رسول الله ﷺ من حديث شداد بن أوس : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء » ثم ضرب ﷺ المثل للإحسان حتى قتل من وجب قتله ، وعند ذبح الحيوان الذي استباحت الإنسانية ذبحه فقال : « فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة ، و إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، و ليحدَّ أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » [17] . رواه الإمام أحمد بسند صحيح.

[16] روى البخاري ومسلم وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (الإيمان بضع وستون [أو : بضع و سبعون] شعبة أعلاها [أو : فأرفعها ، أو : فأفضلها] قول لا إله إلا الله ، و أدناها إماطة الأذى عن الطريق ، و الحياء شعبة من الإيمان)

[17] رواه الإمام مسلم في صحيحه [5028]

وهكذا المعاني التي أشرت آنفاً إلى أنها من شعب الإيمان الإسلامي قد ورد في كل منها النص[18] ودل عليه الهدى ، وأصبح ذلك كله من مدلول الإيمان عند المسلمين .

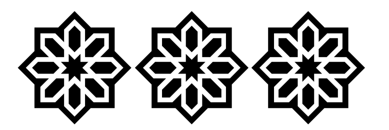
فالأمة الإسلامية التي تتأدب بهذا الأدب ، وتلتمس علم أسرار الكون ومكنونات الخليقة لتعمل بهما وتعتمد عليهما في تكوين قوتها وتوسيع صناعاتها ، لا تحتاج إلى أكثر من خمسين سنة حتى تكون (أمة صالحة) ، و يومئذ يستخلفها الله على الأرض كما استخلف سلفها الأول عندما سار في نفس الطريق .

أما إذا عاندت هذا التوجيه الإسلامي ــ ولو بالمكر و الرياء ــ و أرادت حبس الإسلام في الجامع ، و لم تأذن له بدخول القلب ،والعقل ، و المترل ، و المتجر ، و المصنع ، و المحكمة ، و ديوان الحكم ، و نظام الدولة ، فإنها لا تسيء بذلك إلى الإسلام ، و إنما تسيء إلى نفسها .

ولعلك تسألني : ومن الذي يفعل ذلك ، ومن هو المسئول عنه ؟ ولعلك بسؤالك هذا تريد أن ترمي الخشبة عن كتفك قائلاً : إنها من واجب ولاة أمر المسلمين ...

و أنا أجيبك على سؤالك بأن المسئول عن تحقيق هذه الأمنية كل من آمن بها من الأفراد و الجماعات ، ولو لم يكن في المسلمين غيري وغيرك لوجب علينا أن نبدأ به من أنفسنا ، وندعو إليه كل من يصغي إلى دعوتنا ، و أن نحتال على أهل القابلية من الأصفياء الأذكياء من أبنائنا و بناتنا ، فنبث هذا الإيمان الإسلامي في قلوبهم . ومتى كثر هؤلاء وصاروا شيئاً يذكر ، أكرمهم الله حينئذ بالولاة الصالحين (وكما تكونوا يولى عليكم) . أما أن تكون أنت راعياً غير صالح على نفسك ، وعلى نقودك ، وعلى العمل الذي تعيش منه ، وعلى زوجك ، و أولادك الذين في أمانتك ، وعلى ما علمك الله من فقه و حكمة ومعرفة ، وعلى ما هداك إليه على لسان أكمل رسله من فضائل وحقائق و توجيهات ، ثم تريد أن تكون أمتك صالحة و أنت غير صالح ، فهذا مخالف لسنن الله في خلقه ! ولعلك إذا وليت كرسي الحكم تكون شراً من الذي تشكوه .

فلنكن أنا و أنت صالحين بالمعنى الإسلامي للصلاح . و لنتعاون على تعميم هذا المعنى والدعوة إليه إلى أن تكون الأمة كلها من أهله ، فيكافئنا الله بدولة صالحة ، ويجعلنا خلفاءه على الأرض[19] .



---

[18] أنظرها إن أردت في " شعب الإيمان " للإمام البيهقي ، فقد استوعبها و تتبعها وجمع أدلتها ، و إن شئت مختصره للإمام القزويني ، بتحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ، رحم الله ثلاثتهم .

[19] تأمل ...

خلق الاعتدال

أفضل ما تحمل عليه نفسك و ذَويك

أثمن ما نصحتُ به لابني ودفعته إليه ، وأعظم ما ألزمتُ به نفسي وحملتها عليه ، (خُلق الاعتدال) . وكلما غُمَّ عليَّ أمر ، وترددت في تعيين وجهة الصواب فيه ، جنحت منه إلى ناحية الاعتدال ، فوجدت فيها الخير كله .

إذا كان الغلو ـــ في النادر من الأمور ـــ أجدى و أعظم خيراً من الاعتدال ، فالاعتدال أدنى إلى الخير و أجدى على المرء من أكثر صنوف الغلو . و المعتدل محمود حتى في الأمور النادرة التي يكون فيها الغلو أعلى مرتبة من الاعتدال . و مرجع الاعتدال (العدل) ، وهو رأس الفضائل وقلبها و موضع السرِّ منها ، ومنه اشتق الله سبحانه لنفسه اسماً من أسمائه الحسنى وما كانت الفضيلة فضيلة إلا وهي في مكان الاعتدال ، فإذا تجاوزته إلى أحد طرفي الغلو يميناً أو شمالاً ، سلباً أو إيجاباً ، أوشك أن تكون من الرذائل التي جاءت الديانات بتقبيحها ، و تواصى الحكماء بالتنفير منها وقامت الأنظمة للزجر عنها . وهل كان التواضع إلا الجانب المعتدل بين طرفي الذل و الكبرياء ؟ وهل كان للمجاملة جمال إلا بابتعادها عن رذيلتي الشراسة و المداهنة ؟ وهل كان الكرم كرماً إلا بتوسطه بين خساسة البخل و سفاهة التبذير ؟ وهل الشجاعة إلا الحالة الوسطى بين التهور و الجبن ؟ وهل تجد في الحياة طريقاً إلى هدفك أقرب من الطريق الوسط المعتدل ؟

و الاعتدال أخو الرفق و التيسير . وقد قال رسول الرحمة صلوات الله عليه وسلامه : « إن الرفق ما كان في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه »[20] . وقال ﷺ : « ومن يحرم الرفق يحرم الخير كله »[21] . و « كان ﷺ إذا بعث أحداً في بعض أمره قال : بشّروا ولا تنفِّروا ، ويسروا ولا تعسروا »[22] و قال ﷺ « الدين

[20] صحيح مسلم [6545] .

[21] رواه أبو داود [4809] وغيره ، وصححه الإمام الألباني بهذا اللفظ، وهو في صحيح مسلم بدون لفظ (كله) برقم [6542] .

[22] انظر – مثلاً – صحيح البخاري [7172] .

يُسر ، ولن يغالب الدينَ أحدٌ إلا غلبه »[23] و قال ﷺ : « إياكم الغلو في الدين ، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلوِّ في الدين »[24] و قال ﷺ : « إن المنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى »[25].

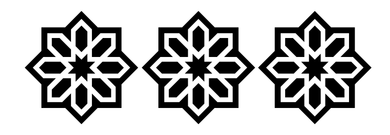
و بالاعتدال تدنو من صاحب الإفراط و قد توفق إلى تقريبه منك ، وبه تشرف على صاحب التفريط وقد تتمكن من إقناعه بضرر ما هو فيه . وسيزعم لك جاهل أنك بما التزمته من الاعتدال تكون لا من هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فلا يخدعك ذلك عما أنت فيه لأنك لا تكون إلى هؤلاء أو أولئك إلا و أنت بعيد عن مباءة[26] الخير ، و في نجوة[27] عن موطن السلامة .

الاعتدال ، الاعتدال . ذلك ما أوصيك به ونفسي فهو طبك في صحتك ، إذا التزمته في مأكلك ومشربك وجهودك وهو ثروتك في معيشتك ، إذا التزمته في نفقاتك ومعاملاتك .

وهو ما تدخره لمعادك ، لأنه من معاني التقوى ، وهل التقوى إلا أن تتقي الشر الواقع في أحد طرفي الإفراط و التفريط ، وتكون في جميع تصرفاتك عادلاً معتدلاً .

الوقاية من الأمراض تقوى ، و مناطها الاعتدال . و الوقاية من المهالك تقوى ، و قوامها الاعتدال . و الوقاية من عُشراء السوء تقوى ، و لا تكون إلا بالاعتدال . و الوقاية من التبذير و الشُّح تقوى ، وهي هي الاعتدال .

خُلق الاعتدال ميزان الدين و زينة الحياة الدنيا ، فإذا كنت تنشد السعادة هنا وهناك فكن في جميع تصرفاتك متوخياً جانب الاعتدال ، فالاعتدال من الرفق و الرفق خير كله ، وقد جربت ذلك بنفسي ، فأردت أن لا أبخل به على أحد ممن أحبُّ .



[23] رواه البخاري [39] ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

[24] صحيح ، انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة [1283] .

[25] ضعيف ، انظر السلسلة الضعيفة [2480] .

[26] المباءة : المنزلة .

[27] بعيد عنه ، بريء منه .

كن مع الله

(مفتاح) من مفاتيح الكنوز ..

(سلاح) من أسلحة الفوز في معترك الحياة ..

(وسيلة) من وسائل العفو[28] ، و العافية[29] ، و المعافاة[30] ..

بل شرط أساسي من شروط التعاون بين الإخوة و العصبة و الأصهار في الأسرة ، وبين الشركاء في الحقل و المصنع و المتجر . و بين الموظفين في المصلحة الواحدة ، و العمال في المصنع الواحد ، و الأعضاء في الجمعية الواحدة ، و المتجاورين في المنازل و الأعمال ، و المترافقين في السفر إلى الحج ، أو في الرحلة إلى خارج البلد

كن مع الله !

وبهذا تعيش سعيداً ، نافعاً ، ناجحاً ، محبوباً ...

إن الإسلام وضع هذا المفتاح الذهبي في أيدي المسلمين ، و المسلمون لم يؤتوا من تضييعه فإنه على ذُكر منهم ، ويرتلونه بألسنتهم ، وينقشونه على عرباتهم في الطرق ، و على سفنهم في الماء و على جدران متاجرهم ومصانعهم وبيوتهم ، ويكتبه الخطاطون منهم بأجمل الخطوط الفارسية ، و يتفننون في الجمع بين كأس النون يساراً وكأس العين يميناً فيتحد الحرفان معاً رمزاً للاتحاد و التعاون اللذين ترشد إليهما حكمة (كن مع الله) فهذه الحكمة محفوظة عند المسلمين و**لم يؤتوا من (تضييعها) ولكنهم أُتوا من (تعطيلها) و التعطيل غير التضييع ، وإن نصوص الإسلام امتازت على نصوص الديانات الأخرى بأن المسلمين عُنوا بحفظها ، وكانوا أقوياء و سعداء وناجحين يوم كانوا يقرنون إلى حفظها العمل بها ، و التعامل بأحكامها في البيت و السوق و المجتمع و الدولة ، فكانوا بذلك سادة الأرض وكانت دولتهم هي (الدولة العظمى) في (العالم الدبلوماسي) لأن أمتهم كانت (خير أمة) بعلمها وعملها . فلما اكتفوا من هذه النصوص بألفاظها ومبانيها دون مقاصدها ومعانيها ، ومن السنن بأشكالها دون غاياتها ، ومن عظماء السلف بقبورهم و رممهم لا بحكمتهم و العمل بمبادئهم وفضائلهم ، ومن الكتب و الأسفار و السور و الآيات بورقها وجلدها وتلاوتها وحفظ حروفها ، لا بتحقيق مدلولاتها ــ لما اكتفوا بهذا عن هذا ــ أصيب**

---

[28] محو الذنوب السابقة بالتوبة العظمى ، وهي عزيمة الرجوع إلى الله و التزام طريقه . [ب]

[29] السلامة من الأسقام و البلايا المنتظرة ، بالتزام التقوى التي هي أكمل أنواع الوقاية .[ب]

[30] أن يعافيك الله من الناس بأن يغنيك عنهم . ويعافيهم منك بأن يصرف أذاك ويكفيهم الحاجة إليك .[ب]

إيمانهم (الذي هو من قول وعمل) بشلل نصفيٍّ عطل شطره الأشرف وهو العمل ، فتجرد عن حقيقة الإيمان وكماله ، فانسلخ أهله عن قافلة المؤمنين ...

أيها المسلمون ، من هنا أُتينا ...

ولن نخرج من الهوة التي سقطنا فيها إلا إذا رجعنا إلى الله و الرجوع إلى الله بمجاراة المعلوم من سننه في خلقه ، لا بمجرد العلم بها . وبالتوفيق بينها وبين المصالح الخاصة ، لا بالإصرار على مصالح خاصة تعارضها و تناقضها . وبالاستفادة من تلك السنن بالبحث عن أسرارها و مجهولاتها ، لا بالإعراض عنها و التعامي عما أودعه الله فيها من نعمة وقوة و متعة صالحة وتيسير لمطالب الحق و الخير .

ودين الله كله ـــ من آدم أبي البشر إلى محمد خاتم النبيين ﷺ ـــ محصور في كلمتين لا ثالثة لهما أبدا : الحق ، و الخير . و أنت تكون (مع الله) ما كنت (مع الحق) حيثما كان : ما كان معلوماً منه ونصت عليه الشرائع ، وما سيعلم منه و لم يسبق له ذكر في نصوص الشرائع . فكل ما يثبت أنه حق ثبوتاً علمياً قاطعاً ، فهو من أمر الله ، وهو من دين الله ، لأن الحق من أسماء الله . وعلى أساسه يقوم دين الله . فكل دين يخالف ناحية من نواحي الحق فهو باطل من تلك الناحية . وهي طارئة عليه ، لأن الله الذي من أسمائه الحق ، لا يوحي في دين من أديانه ما يخالف الحق .

و قد أخذ الله العهد و الميثاق على ولاة أمر البشر أن يحكموا بالحق ، و أن يبنوا أنظمتهم على الحق ، فكل حكم خالف الحق المبين فهو حكم باطل و أهله ظالمون ، وكل نظام بني على ما ينافي الحق المبين فهو نظام باطل و أهله خاسرون ، أما الدولة التي تكون (مع الله) بإقامة الحق ، و بحمل أمتها عليه ، فإن الله يكون معها ، ويمكن لها في الأرض ، ويستخلفها على خلقه وقد أخذ الله العهد و الميثاق على المتعاملين في الأسواق ، و على المتشاركين في المتاجر و الصناعات و الحقول و على المتعاونين في تكوين الجماعات النافعة ، و الأحزاب التي تدافع عن الأوطان و مصالحها ، أن يلتزموا الحق في كل ما يتصل به بعضهم ببعض وبذلك يكونون (مع الله) ويبارك الله في ما اشتركوا فيه أو تعاونوا عليه . أما إذا نسى أحدهم ربه ، فدفعته أنانيته أو مصلحة حقيرة من مصالحة إلى مخالفة الحق في ساعة من ساعات الشيطان ، فإنه يحمِل بذلك غيره على مثل عمله ، فيعم الباطل تلك الشركة ، أو الجماعة ، أو الحزب ، فيعرض الله عنهم و يبوءون بسوء المصير . وقد أخذ الله العهد و الميثاق على الوالد ورب الأسرة أن يسوس أسرته و يربي ولده على إتباع الحق ، و أن يكون هو قدوة لهم في التزام الحق . فالبيت الذي يسود فيه الحق : يأمن أهله أذى بعضهم لبعض ، و يطمئن الناس إليهم فيتعاملون معهم بالحسنى ، و إذا عاملهم أهل الشر بغير الحسنى قيض الله لهم من أهل الحق ومن

جمهور الخلق أنصاراً . أما البيت الذي يتساهل ربه في بعض نواحي الحق ، ويتسامح في حمل ذويه وبنيه على الحق ، فمحكوم عليه بالشقاء ، لأن الانحراف عن الحق مجافاة لله ، و الذي يلتزم الحق يكون (مع الله) .
وقد أخذ الله العهد على المرء و المرأة أن يكون كل منهما محباً للحق وملتزماً له ومدافعاً عنه ، و لا يكون الإنسان (مع الله) إلا إذا توخى الحق فيما يختار لنفسه من عقيدة يؤمن بها فيما يتعلق بالخالق أو المخلوق ، وفيما هو من عالم الغيب أو من عالم الشهادة ، وفيما وقع من قبل و انقضى أو ما هو واقع الآن ، وفيما يجرُّ عليه الاعتقاد به و الاعتراف بأحقيته ضرراً و أذىً أو يجر عليه شيئاً منهما .
والحق لا يتناقض ، فإذا زعم كل من المتناقضين أنه على الحق من الناحية التي هما متناقضان فيها فاحدهما كاذب أو كلاهما .
و الإنسان الذي (مع الله) هو الذي لا يماري في الحق و الذي إذا كانت له مصلحة شخصية في الجانب الذي يخالف الحق أعرض عنها ورجع إلى الحق . و إذا اختلف مع أحد على حق وانتبه إلى شيء من الحق لخصمه بادر إلى الاعتراف له به وإن لم ينتبه له خصمه .
وتكون من صميم (أهل الله) الذين يحرصون على أن يكونوا (مع الله) إذا استوفيت ما عليك للحق ، فانتصفت له من نفسك ومن غيرك ، واعترفت به لصديقك وعدوك في سلمك وحربك ، حتى إذا لاح لك وجه فضل يزيدك قرباً من ربك وتثبتاً من كونك مع الله ، فذلك الفضل يسمى (خيراً) ، فأنت إن أقبلت على تحقيقه بنفس راضية وعزيمة ماضية ، واغتباط وابتهاج ، فاعلم أنك سائر في طريق الله و أنك مع الله .
لأن دين الله كلمتان لا ثالثة لهما كما قلت لك آنفاً وهما : (الحق) و (الخير) فكل حق مفروض خير وليس كل خير حقاً مفروضاً ، و القيام بالحق واجب مفروض ، و الزيادة عليه فضل محمود .
وبعد فإن كلمة (كن مع الله) خفيفة على اللسان عظيمة في الميزان ، و الكلام عليها واسع كآفاق الحق ، بعيد المرمى كأهداف الخير . و أنت إذا علمت بأن مصلحتك الخالدة متوقفة على التضحية بمصلحتك العاجلة تحقيقاً للخير و إن لم ينتبه إليه الناس ، و تعميماً للخير و إن لم يدع إليه أحد من الناس فتلك علامة على أنك من (أهل الله) و أنك (مع الله) .

